

روح المعاني

فيصير ذلك سببا لكمال الاستغراق وسيأتي أن شاء الله تعالى ما للصوفية قدس الله تعالى أسرارهم في هذا المقام في باب الإشارة وقيل : لأنه عليه السلام كان واثقا بحياتهما عالما بمكانهما طامعا بآيابهما وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله وفيه بحث .

وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن جبير لم تعط أمة من الأمم إنا الله وانا اليه راجعون الا أمة محمد صلى الله عليه وسلم أي لم يعلموه ولم يوفقوا له عند نزول المصيبة بهم ألا يرى إلى يعقوب عليه السلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال ما قال وفي أسفا ويوسف تجنيس نفيس من غير تكلف وهو مما يزيد الكلام الجليل بهجة وابتضت عيناه من الحزن أي بسببه وهو في الحقيقة سبب للبكاء والبكاء سبب لابيضاء عينه فان العبرة اذا كثرت محقت سواد العين وقلبتة الى بياض كدر فاقيم سبب السبب مقامه لظهوره والابيضاض قيل انه كناية عن العمى فيكون قد ذهب بصره عليه السلام بالكلية واستظهره أبو حيان لقوله تعالى : فارتد بصيرا وهو يقاتل بالأعمى وقيل : ليس كناية عن ذلك والمراد من الآية أنه عليه السلام صارت في عينيه غشاوة بيضتهما وكان عليه السلام يدرك ادراكا ضعيفا وقد تقدم الكلام في حكم العمى بالنسبة الى الانبياء عليهم السلام وكان الحسن ممن يرى جواره .

فقد أخرج عبد الله بن أحمد في زوائده وابن جرير وابو الشيخ عنه قال : كان منذ خرج يوسف من عند يعقوب عليه السلام الى يوم رجع ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجري على خديه ولم يزل يبكي حتى ذهب بصره وما على الأرض يومئذ والله أعلم على الله تعالى منه والظاهر أنه عليه السلام لم يحدث له هذا الأمر عند الحادث الاخير ويدل عليه ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ليث بن أبي سليم أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فعرفه فقال له : أيها الملك الكريم على ربه هل لك علم بيعقوب قال : نعم قال : ما فعل قال : ابيضت عيناه من الحزن عليك قال : فما بلغ من الحزن قال : حزن سبعين مشكلة قال : هل له على ذلك من أجر قال : نعم أجر مائة شهيد وقرأ ابن عباس ومجاهد من الحزن بفتح الحاء والزاي وقرأ قتادة بضمهما واستدل بالآية على جواز التأسف والبكاء عند النوائب ولعل الكف عن أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد .

وقد روى الشيخان من حديث أنس أنه A بكى على ولده ابراهيم وقال : إن العين تدمع والقلب يخشع ولا نقول الا ما يرضى ربنا وإنا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون وانما المنهي عنه ما

يفعله الجهلة من النياحة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق الثياب ورويا أيضا من حديث أسامة أنه صلى الله عليه وسلم رفع اليه صبي لبعض بناته يجود بنفسه فاقعده في حجره ونفسه تتقعقع كأنها في شن ففاضت عيناه E فقال سعد : يا رسول الله ما هذا فقال : هذه رحمة جعلها الله تعالى فيمن شاء من عباده وإنما يرحم الله تعالى من عباده الرحماء وفي الكشف أنه قيل له E : تبكي وقد نهيتنا عن البكاء قال ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين صوت عند الفرح وصوت عند الترح وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره فقليل له في ذلك فقال : ما رأيت الله تعالى جعل الحزن عارا على يعقوب عليه السلام فهو كظيم .